﴿ باب العقائد من الأمالى الدينية ﴾

(الدرس ٣٥ — عدد الأنبياء ومواطنهم وتعددهم)

(المسألة ٩٦) عدد الأنبياء والمرسلين رووا فى عددهم أحاديث لا يحتج بشىء منها ومنها الضعيف والموضوع وأمثلها ما رواه أحمد والطبرانى وابن حبان والحاكم وابن مردويه والبيهقى فى الأسماء عن أبى أمامة قال : قلت يارسول الله كم عدة الأنبياء ؟ قال « مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جما غفيرا » وفى رواية للحاكم والبيهقى عن أبى ذر « والمرسلون ثلاثمائة وثلاثة عشر وآدم نبى مكلم » . ومن حديث أنس عند الحاكم وابن سعد أن الأنبياء ثمانية آلاف ويفهم منه أن المراد بهم المرسلون وفى حديث جابر عند ابن سعد وأبى سعيد عن الحاكم « إنى خاتم ألف نبى أو أكثر » ولعدم الثقة بهذه الروايات قال العلماء بالوقف فى مسألة عدد الأنبياء لأن القائل بعدد يكون نافيا لما زاد عنه فهو كالمكذب بالزائد وما يدريه لعل هناك زيادة . هكذا قالوا وأقوى منه أنه قول على الله بغير علم فهو من الكذب عليه جل ثناؤه ومن اتباع الظن فى الأمور الاعتقادية « وان الظن لا يغنى من الحق شيئا » . وقد قال تعالى لنبيه « مِنهم مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ ومنهم مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ » فحسبنا من العدد ماقصه الله تعالى فى القرآن أن الرسل الذين ذكروا فى القرآن يجب الإيمان بهم تفصيلا . قال تعالى « وتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إبراهيمَ عَلَى قومه نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إن ربك حكيم عليم . ووهبنا له إسحٰق ويعقوب كُلاً هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وسُلَيمانَ وأيوب

ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين. وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين» فهذا هو تفضيل النبوة والرسالة يفضلون به سائر الناس. وقد وردت هذه الأسماء متصلة على هذا الوجه. وقال تعالى: «واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا» وقال جل جلاله في ذكر قصص المرسلين «وإلى عاد أخاهم هودا» وقال «وإلى ثمود أخاهم صالحا» وقال «وإلى مدين أخاهم شعيبا» أي وأرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً ومثله ما بعده وقال تعالى «واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار» فذكر ذا الكفل بين الأنبياء. ولم يبق إلا ذكر الفاتح وهو آدم والخاتم وهو محمد عليهم الصلاة والسلام وذكرهما في القرآن مستفيض

(م ٩٧) معاهد الأنبياء ومواطنهم: إن المعروف من تاريخ هؤلاء الأنبياء الكرام يدل على أنهم كانوا كلهم أو جلهم من بلاد العرب وما يتصل بها من الشام وفلسطين والعراق كأن هذه القطعة الصغيرة من الأرض التي يكون منها الفاموس الهندي والبحر الأحمر والبحر المتوسط شبه جزيرة هي منبت الأنبياء والمرسلين من بعد آدم أي من عهد نوح إلى عهد محمد عليهما الصلاة والسلام. وكأن الله تعالى اختص أهلها بالهداية دون سائر خلقه وان القول بحصر النبوة والرسالة في هذه البقعة لمن أقوى شبه الملاحدة على الدين وهو ينافي ما تقدم في بيان وجه الحاجة إلى إرسال الرسل فيمكن أن يبطلوا ذلك بهذا إن صح وقد حملهم ما رأوا في كتب اليهود والنصارى من حصر الأنبياء في بلاد فلسطين والشام وما

جاورها على البحث فى أخلاق أهل هذه البلاد وطبائعهم وعاداتهم فزعموا أن عند خواصهم استعداداً آخاصاً للقيام بالدعوات الدينية والمذاهب والرياسة الروحية وأن عند عوامهم استعداداً لإجابة كل داع واتباع كل ناعق قالوا ولأجل هذا حدثت الأديان والمذاهب والفرق فى هذه البلاد دون غيرها

هذه الوساوس لا منفذ لها إلى قلب من يفهم القرآن فقد قال جلت حكمته « إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نذير » فهذا نصٌّ قاطع صريح فى أن هذه الرحمة الإلهية والهداية السماوية كانت منحة عامة لجميع الأمم فى كل بقعة من بقاع الأرض. وإنه لقولٌ فصل ، تصافح فيه العقل مع النقل ، فإن قيل لِمَ لَمْ يذكر فى بيان هذا الإجمال بذكر الأنبياء والمرسلين نبيًّا أرسل فى الهند أو الصين أو أوربا أو أميركا ؟ نقول إن ذكر الأنبياء لم يأت بياناً لإجمال فى هذه الآية وإنما أتى لبيان سنن الله تعالى فى الأمم مع أنبيائهم لأجل العبرة المنذَرين . وتثبيت المرسلين ، قال تعالى « لقد كان فى قَصَصِهم عبرة لأولى الألباب » وقال « وكلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ من أنباء الرُّسلِ ما نُثَبِّتُ به فُؤَادَكَ » وكل من العبرة والتثبيت إنما يكون بما هو معروف ولو بوجه ما ولذلك تكرر ذكر الأنبياء الذين تعرف أقوامهم أو بلادهم بالتفصيل أكثر مما لا يعرف إلا بالإجمال . ويكفى ذكر آية واحدة لبيان أن رحمته تعالى لعباده بإرسال الرسل لهدايتهم عامة لأن جميع الخلق عيال الله تعالى وهو بهم رءوف رحيم . أرأيت لو جاء هذا النبي العربي قومه بذكر نبي كان أرسل فى أميركا منذ مائة ألف سنة مثلاً وذكر لهم بعض شأنه معهم أكان يحصل لهم من العبرة بعض ما حصل من أخبار أمة اليهود ، وخبر صالح فى ثمود ؟

كلا إن ذكر المجهول المطلق يحمل على التخيل والاختراع ، ويقول الناس في أمثالهم : إذا أردت أن تكذب فأبعد الشهود . ولذلك كان يأمرهم أحيانا بسؤال اليهود ، ونزل في قصة ثمود ، « وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون »

وما يدرينا أن كونفشيوس كان نبياً مرسلاً إلى أهل الصين ، فإن آثار هدايته وحكمته لم تمح بالمرة وكذلك يقال في بوذة فإن قيل يوجد في عقائد القوم ما يحكم الإسلام بأنه لا يمكن أن يكون من دين الله لاسيما ما في الديانة البوذية من الشرك بالله تعالى ؟ نقول أليس يوجد في عقائد من صرح القرآن الحكيم بأن كتبهم سماوية ، وديانتهم إلهية ، أمثال هذه العقائد التي يعدها الاسلام وثنية ؟ فما يدرينا أن هذا دخل على القوم بالتأويل والتحريف كما دخل على من بعدهم إلى يومنا هذا « أَلَمْ يَأْنِ للذين آمنوا أن تَخْشَعَ قلوبُهم لذكرِ اللهِ وما نَزَلَ من الحق ولا يكونوا كالذين أُوتُوا الكتاب من قبلُ فطال عليهم الأمَدُ فقست قلوبهم وكثيرٌ منهم فاسقون » إذن إن طول الأمد على البعثة مظنة الفسوق عن أمر الله تعالى والعبر بين أيدينا وعن أيماننا وشمائلنا ، فألهمنا اللهم رشدنا

فإن قيل : إذا جوزتم أن تكون الأمم التي سبقت لها آداب سامية ، ومدنية زاهية ، قد استمدت ذلك من الديانة السماوية ، كما قلت في الأمة الصينية ، فما هو الحكم في الأمم الهمجية التي لا يكاد يفصلها عن الحيوان الأعجم إلا بدوُّ البَشَرة والضحك بالطبع كبعض زنوج أفريقيا وسكان بعض جزائر القاموس المحيط الأعظم ؟ إن قلتم إنه بعث فيهم أنبياء فأين آثار هدايتهم في الأمة ؟ وإن قلتم لما يُرْسَلْ إليهم رسول فأين العموم في قوله

تعالى «وإن من أمة لا خلا فيها نذير» فالجواب أن الله جلت حكمته خلق هذا الانسان وجعل كماله الوجودي بالارتقاء التدريجي في عمله بالكون وعمل الكون به فكلما استعد لمرتبة من مراتب ذلك الكمال أعطاه اياها فهو يأخذ دائما بقدر استعداده . وإطلاق القول في العموم والخصوص يراعى فيه قيد ما عرف في نظام الوجود انه شرط له فاذا قلنا ان الأنثى تلد أو كل أنثى تلد فالمراد أنها تلد في سن الولادة وبشرطها الوجودي فلا ينقضه كون الصغيرة لا تلد . فاذا فرضنا أن المسئول عنهم لم يظهر فيهم مرشد ينذر قومه بما يعطيه الالهام الإلهي من المعرفة سوء ما هم فيه من إفساد ويدلهم على الحق وطرق الاصلاح فلا شك أن ذلك لعدم استعدادهم لفهم الحق ومعرفة الخير من الشر

على أن عدم ارتقائهم في المدنية لا يدل على أنه لم يظهر فيهم نذير ولا مرشد لأن الناس في كل عصر لا يستفيدون في هداية الأنبياء إلا بقدر استعدادهم فكم من نبي لم يؤمن به إلا النفر القليل كما ورد في نوح عليه السلام . وكم من نبي لم يؤمن به أحد كما قال تعالى بعد ذكر قصة نوح «ثم بعثنا من بعده رسلاً إلى قومهم فجاؤهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل» وأكثر الأنبياء قد درست آثارهم في الشرق حتى أن صحف ابراهيم لم يحفظ منها شيء وهو أبو الأنبياء وخليل الرحمن والذي حفظت له الذكر الحسن جميع الأمم المؤمنة لأنها كانت قد ارتقت وصار فيها من يعرف قدر العظماء ويحفظه ولأن النبوة تسلسلت في ذريته باتصال فهل ينكر مع هذا أن لا يحفظ للأنبياء الذين يظهرون في الأمم الجاهلة الهمجية أثر ؟

(م ٩٩) ارتقاء الدين جرى الدين في سنة الارتقاء وكان كماله في الشرق

وذلك من عهد إبراهيم إلى عهد محمد خاتم النبيين فالأنبياء ليسوا سواء في إصلاح الأمم في عقائدها وأعمالها وآدابها وروابطها الاجتماعية لأن الحاجة إلى الاصلاح تختلف باختلاف الأمم والأقوام فالبدو أقل من الحضر ضلالا في الفكر وأقل علما لأنهم أهل فطرة لم تتحكم فيها المذاهب الوضعية والآراء النظرية وأقل فسادا في الأخلاق والآداب لسذاجتهم وبعدهم عن الترف وليس في البداوة من الشئون الاجتماعية مثل ما في الحضارة فتحتاج الى ما تحتاج إليه من الشرائع المدنية والقضائية والسياسية .

كان الناس على بساطتهم وسلامة فطرتهم فلما دب فيهم الفساد لم يفش إلا بالتدريج فكان يظهر فيهم الشرك في العبادة وهو التوجه إلى شيء من المخلوقات يكون صلة بينهم وبين الخالق الذي تشعر به فطرتهم ، ولا يحيط به علمهم ولا تحده مخيلتهم ، ويفشو فيهم بعض الشرور فيظهر الله فيهم واحداً منهم كبير العقل زكي النفس يلهم قلبه ويوحي اليه أن ينذرهم العقوبة على ظلمهم وينهاهم عن الشرك والرذيلة ويأمرهم بضدهما وبذلك تستقيم حال من أطاعه لأن هذا الذي طرأ عليهم هو الذي يطفيء نور الفطرة بالتمادي فيكون الانسان به شيطاناً مريداً . ألا ترى أن من الأنبياء من لم يذكر له القرآن إلا الدعوة الى التوحيد فقط . ومنهم من ذكر له النهي عن معصية كانت فاشية فكان يدعو إلى التوحيد وينهى عنها دائما كما جاء في قصة لوط من النهي عن الفاحشة دائما . وكقوله تعالى في رسالة شعيب عليه السلام « وإلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان » ثم حكى عنه « وياقوم أوفوا المكيال والميزان » . فيفهم من تكرار ذلك أن المقصود الأعظم من رسالة شعيب عبادة الله تعالى وحده

وإيفاء الكيال والميزان لأن قومه كانوا مطففين (كأكثر الباعة في مصر لهذا العهد) إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ولم تكن رسالة موسى بهذا الاختصار فقد كانت لها شريعة واسعة وفيها هجرة وحرب لأن معيشة الحضارة وحكم الاستبداد أثرا في بني اسرائيل تأثيراً أفسد طباعهم من جهة وجعلهم مستعدين لحياة مدنية فاضلة من جهة أخرى فكانت هدايتهم أصعب.

(م ١٠٠) تعدد الرسل ومراتبهم: كان الناس أمة واحدة على فطرة الله التي فطر الناس عليها وذلك عند ما كانوا على البداوة التي هي أقرب إلى الحياة الفردية منها إلى الحياة الاجتماعية فقضت سنة الارتقاء أن يزيدوا اجتماعا بالتدريج فكانت بعد البيوت والاسر العشائر والفصائل والقبائل والشعوب والأمم. وكانوا كلما ارتقوا درجة في الاجتماع تقوى فيهم الأطماع التي يقتضيها التنازع في الحظوظ ويكونون في حاجة الى علم واسع بالمصالح والمنافع المشتركة. وكان يظهر فيهم عند الدخول في كل طور من هذه الاطوار هداة يرشدونهم الى ترك الضار بأنفسهم منفردة ومجتمعة ويدلونهم على ما به تسلم أرواحهم من الفساد في الاعتقاد والاخلاق وفي ذلك سعادة الدنيا والآخرة وبهذا وماقبله يعلم أن المقصود من بعثة الانبياء والمرسلين واحد في الجملة وانه يختلف في تفصيله باختلاف أحوال الاقوام وان أولئك الهداة المصلحين لم يكتسبوا علم اصلاح الامم اكتسابا بالتعليم وانما كانوا ممتازين بفطرتهم السليمة عن قومهم امتيازا كانوا به على علم بالاصلاح ضروري عندهم سمي لخفاء منشأه وسرعة حدوثه في النفس وحيا (راجع الكلام على الوحي في المسألة ٦٢ من الدرس العشرين – ٢٥٢: ٤)

وكان علمهم مؤثرا فى النفس باعثا لها على العمل به لانه وجداني إلهي لامن استنباط التصور والفكر الذى يصحبه الشك والتردد أى انه كان يقع فى قلب صاحبه ومعه علم آخر وجدانى وهو أنه من الله تعالى سواء نزل على القلب فى اليقظة أم فى المنام .

ونتيجة هذا وذلك أن علوم الرسل وأعمالهم متفاوتة بحسب أحوال أممهم وبذلك فضل الله بعضهم على بعض ورفع بعضهم درجات وسمى بعضهم أولى العزم ومنه ومن اختلاف اللغات فى الاقوام يعلم أنه الرسل قد يتعددون فى زمان واحد بين أقوام ولو متجاورين وقد يتعددون فى أمة واحدة للتعاون كموسى وهرون فى بنى اسرائيل. واذا كان فضل بعض الرسل على بعض يكون بحسب حال الأمم التى بعثوا اليها وما يستلزمه إصلاحها من العلم والعمل فموسى جدير بأن يكون أفضل من صالح وشعيب والمرسل الى الخلق كافة أفضل من المرسل الى أمة ممدودة . وبهذه المناسبة ومناسبة كون إرسال الرسل كان على حسب حاجة البشر الى الاصلاح الروحى والاجتماعى نتكلم فى الدرس الآتى عن ختم النبوة وخاتم النبيين عليه أفضل الصلاة والتسليم

(ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)

بقلم الشيخ أمين أفندى عز الدين من اهل العلم والادب فى طرابلس الشام ونزيل مصر الآن

صدق الله العظيم وكذب هوس الناس : نقوم أمام المحراب تماثيل بشرية يحركها حكم العادة أيدينا بالتكبير وألسنتنا بالتلاوة والتسبيح ويحنى ظهورنا للركوع ويثنى عظامنا للسجود من غير أن يلم بنا شعور بهذه

الأوضاع أو يفعل فى أنفسنا تأثير من تلك الأعمال فضلا عن نظر فى مقاصدها وتوجه إلى غاياتها ونحسبها من الصلاة التى قال فيها رب محمد صلى الله عليه وسلم : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » ونحن مشمرون للفواحش عن ذراع سبحان الله نحن ما نحن مصلون .

الصلاة ما جعلها الله أفعالاً ميتةً وأوضاعاً جامدةً تقصد لذاتها ولكن جعلها مظاهر سكينة ومواقف خضوع تؤذن الناس أنها شعار مناجاة بين العبد وبين ربه كل يوم ليكون هذا الإنسان على نوع من ذكر الله تعالى فى معارك معاشه ومعامع حياته وفى الآخرة أعد الله له أجراً عظيماً .

تعالى الله أن يكلف قلوباً غلفاً ونفوساً جلفاً باختلاجات عضوية فارغة الإناء ثم يعد لفاعلها حسن الجزاء .

الصلاة أفعال مخصوصة ذات أركان معلومة جعلها دين الله الإسلامى مرقاةً لمراقبة المعبود أنزلت من السماء مائدة تحمل للأرواح غذاءها من العالم النورانى كيلا تضل فى الغربة ويتغلب عليها سلطان الشهوة الذى يأتيه رزقه من مطاهى هذه الطبيعة كل يوم . خلق هذا الإنسان عالمين متباينين لكل منهما مطالب تناسب طبيعته وتلائم درجته فى الوجود . أحدهما : مادى كثيف حكم الله عليه أن يتكفف هذه الطبيعة فى وجوده وبقائه والثانى : أثيرى لطيف يستمد وجوده من النور القدسى ويستفيض بقاءه من النفحات الإلهية فالأول جسم والثانى روح .

تناول الجسد وجوده من هذه البسائط الأرضية فجرت عليه قوانين الطبيعة واعتورته أحكام المادة من قوة وضعف وزيادة ونقص وتحلل وتركب وأصبح من أجل ذلك فى حاجة شديدة لتعويض ما تستلبه

منه نواميس التحليل مثلاً بمثل وجنساً بجنس وذلك غذاؤه وأما الروح فهو وإن كان آمنا على وجوده من غارة الفناء وانحلال الأجزاء إلا أنه هبط من السماء وله مع العالم المادى شئون اريد كل من المتجاورين أن يكون هو المتغلب ليتمكن من امتلاك هذ الهيكل الإنسانى فيستسميه فى أمياله ويتصرف فيه كيف يشاء ومن ثمة كان الروح مضطراً أن يستمد من عالمه العلوى ما يقوى به على التغلب أو يحفظ به مركز استقلاله وهذا هو غذاؤه، متى تمت الغلبة للروح رفرفت بهذا الإنسان إلى معاهدها الأولى فى مظاهر الملكوت ومصاف الملكية وأذنت له أن يتصرف بما فى آفاقه من الكونيات المادية إلى حيث يجعلها من خدم شئونه الحيوية على عكس من الجسد إذا تسنم صهوة القلب واقتعد سرير السلطة فإنه يهبط بالإنسان إلى عالمه فى الدركات السفلية وبرزخ العجم من الحيوانات إلى حيث تترفع الطبيعة أن يمسها بكفه تصرف أو تمكنه من وطر ، فأى الطريقين خير ؟

أراد الإسلام بهذا الإنسان خيراً فحتم عليه فى سائر أحواله أن يجيب مطالب عالمه الروحى ويتقاعس عن مشتهيات عالمه المادى ما استطاع ودعاه أن يقف بين يدى ربه سبحانه وتعالى خمس وقفات فى اليوم يناجيه بهيئة الذل وشعار الخضوع بحيث ينبذ ما سواه فى العراء ليتأهل لقبول الفيض الإلهى الذى هو لروحه غذاء تتقوت به وتعتمد عليه فى مناورات عالم الجسم والمادة وتلك هى الصلاة التى تنهى عما تنهى وتقرب إلى الله زلفى

تلك التى كفكفت جبروت أولئك القوم الجاهلية فى ردح من الزمن وهى التى كان مؤمن القلب فى القرون الغابرة يتغيب فيها عن

مشاعره بحيث لم يكن يشعر بالفواجع الخطرة والمؤلمات الجسدية ولو كان في هذه نشر عظمه أو عرق لحمه وهاهو تاريخ حياة القوم كانوا يصلون أو الصلاة ماهية دعامتها الخشوع . كانوا يعملون أن مافيها من الاعمال انما هو ركن ثانوي يقصد به تمثيل الخضوع القلبي على الجوارح ليشترك السر والعلانية في التذلل والسكينة فطفقوا يصلون متجردين عن المشاغل الفكرية وهو السبب فيما يبلغنا عنهم من الغيبة عن مشاهد الكون في خلال الصلاة أما نحن فاننا ذهبنا إلى ان الصلاة انما هي تلك الاعمال الظاهرية لادخل فيها لخشوع ولا يغني فيها خضوع وأقبلنا نجتزئ بتلك الوقفات الجمادية والاختلاجات اللسانية وهي لاتصدنا عن فحش نأتيه ولا تنهانا عن منكر نفعله فهل نخلف قول القرآن أم نحن لم نكن مصلين ؟

نزعم أننا لم نخاطب خطاب التكليف بتلك الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر حيث فهمنا أنها هي الكاملة ويكأن القوم لا يعلمون !! هل أمر الله إذ أمر باقامة الصلاة ان تكون ناقصة أم دلت الاقامة في قوله تعالى (اقيموا الصلاة) على ذلك المعنى الناقص ؟

استغفر الله . قال صلى الله عليه وسلم الاحسان أن تعبد الله كانك تراه فإن لم تكن تراه فانه يراك . اللهم ما هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا

﴿ الملائكة والنواميس الطبيعية ﴾

سأل سائل : اذا كانت الملائكة هي عبارة عن القوى المعنوية . والنواميس التي بها نظام العوالم الحية . فما معنى «يوم يقوم الروح والملائكة صفا» وأمثاله ؟ والجواب : ان الذي تقدم في التفسير هو ان الملائكة عالم مستقل مستترعنا وانما كان ذكر القوى والنواميس الطبيعية جذبا لمنكري الملائكة الى التصدق لأن بعض ماورد يوافق ما يعتقدون فكيف يكفرون لاختلاف الالفاظ لأن الكلام كان ارجاعا لنصوص الدين الى أقوالهم

﴿ القسم العمومى ﴾

نموذج فى كتاب دلائل الإعجاز للامام عبد القاهر الجرجانى وهو يطبع الآن

فصل

(فى الكلام على من زهد فى رواية الشعر وحفظه . وذم الاشتغال بعلمه وتتبعه)

لايخلو من كان هذا رأيه من أمور (أحدها) أن يكون رفضه له وذمه إياه من أجل مايجده فيه من هزل أو سُخْفٍ وهجاء وسب وكذب وباطل على الجملة (والثانى) أن يذمه لأنه موزون مقفًّى ويرى هذا بمجرده عيباً يقتضى الزهد فيه والتنزه عنه (والثالث) أن يتعلق بأحوال الشعراء وأنه غير جميلة فى الأكثر ويقول قد ذُمُّوا فى التنزيل ، وأىّ كان من هذه رأياً له فهو فى ذلك على خطأ ظاهر ، وغلط فاحش ، وعلى خلاف ما يوجبه القياس والنظر ، بالضد مما جاء به الأثر ، وصح به الخبر .

أما من زعم أن ذمه له من أجل ما يَجد فيه من هزل وسُخف وكذب وباطل فينبغى أن يذم الكلام كله . وأن يفضل الخَرَسَ على النطق والعِىَّ على البيان . فمنثور كلام الناس على كل حال أكثر من منظومه والذى زعم أنه ذم الشعر بسببه وعاداه بنسبته إليه أكثر لأن الشعراء فى كل عصر وزمان معدودون . والعامة ومن لا يقول الشعر من الخاصة عديد الرمل . ونحن نعلم أن لو كان منثور الكلام يُجمَع كما يُجمَع المنظوم . ثم عَمَد عامدٌ فجمع ماقيل من جنس الهزل والسخف نثراً فى عصر واحد لأربى على جميع ما قاله الشعراء نظما فى الأزمان الكثيرة ولغمره حتى لا يظهر فيه ، ثم إنك لو لم ترو من هذا الضرب شيئاً قط ولم تحفظ إلا الجِدَّ المحض وإلا مالا يعاب عليك فى روايته وفى المحاضرة به وفى

نسخه وتدوينه لكان فى ذلك غنى ومندوحة ولو وجدت طلبتك ونلت مرادك وحصل لك ما نحن ندعوك اليه من علم الفصاحة فاختر لنفسك ودع ما تكره الى ما تحب (هذا) وراوى الشعر حاك وليس على الحاكي عيب، ولا عليه تبعة، إذا هو لم يقصد بحكايته أن ينصر باطلاً، أو يسوء مسلما، وقد حكى الله تعالى كلام الكفار فانظر إلى الغرض الذى لهُ روىَ الشعر ومن أجله أريدَ وله دوّن تعلم أنك قد زغت عن المنهج وانك مسىء فى هذه العداوة وهي العصبية منك على الشعر. وقد استشهد العلماء لغريب القرآن وإعرابه بالأبيات فيها الفحش وفيها ذكر الفعل القبيح ثم لم يعبهم ذلك إذا كانوا لم يقصدوا إلى ذلك الفحش ولم يريدوه ولم يرووا الشعر من أجله. قالوا وكان الحسن البصرىّ رحمه الله يتمثل فى مواعظه وكان من أوجعها عنده:

﴿ اليوم عندك دلُّها وحديثها وغداً لغيرك كفها والمعصم ﴾

وفى الحديث عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ذكره المَرْزُبانى فى كتابه باسناد عن عبد الملك بن عمير أنه قال أُوتىَ عمر رضوان الله عليه بحلل من اليمن فأتاه محمد بن جعفر بن أبى طالب ومحمد بن أبى بكر الصديق ومحمد بن طلحة بن عبيد الله ومحمد بن حاطب فدخل عليه زيد ابن ثابت رضى الله عنه فقال يا أمير المؤمنين هؤلاء المحمّدون بالباب يطلبون الكسوة فقال ائذن لهم يا غلام فدعا بحلل فأخذ زيد أجودها وقال هذه لمحمد بن حاطب وكانت أمه عنده وهو من بنى لؤىّ فقال عمر رضى الله عنه أيّهات أيهاتَ وتمثل بشعر عُمارة بن الوليد:

أسرتك لما صرّع القوم نشوة ... خروجي منها سالما غير غارم [1]

بريئا كأني قبل لم أك منهم ... وليس الخداع مرتضى في التنادم

رُدّها ثم قال ائتني بثوب فأتاه على هذه الحال وقال أدخل يديك نخذ حلة وأنت لا تراها فاعطهم : قال عبد الملك فلم أر قسمة أعدل منها .

وعُمارة هذا هو عُمارة بن الوليد بن المغيرة خطب امرأة من قومه فقالت لا أتزوجك أو تترك الشراب فأبى ثم اشتد وجده بها فحلف لها أن لا يشرب ثم مر بخمّار عنده شَرْب يشربون [2] فدعوه فدخل عليهم وقد أنفدوا ما عندهم فنحر لهم ناقته وسقاهم ببرديه ومكثوا أياما ثم خرج فأتى أهله فلما رأته امرأته قالت ألم تحلف أن لا تشرب فقال :

ولسنا بشَرْب أم عمرو إذا انتشوا ... ثيابُ الندامى عندهم كالغنائم

ولكننا يا أم عمرو نديمنا ... بمنزلة الرّيان ليس بعائم [3]

أسرتك — البيتين » فإذن : رب هزل صار أداة في جد ، وكلام جرى في باطل ثم أستعين به على حق ؛ كما أنه رب شيء خسيس ، توصل به إلى شريف ، بأن ضرب مثلا فيه ، وجعل مثالا له ؛ كما قال أبو تمام :

والله قد ضرب الأقلّ لنوره ... مثلا من المشكاة والنبراس

وعلى العكس فرب كلمة حق أريد بها باطل فاستحق عليها الذم كما عرفت من خبر الخارجي مع عليّ رضوان الله عليه ، ورب قول حسن

(١) صرع بالتشديد كصرع بالتخفيف . والضمير في منها للنشوة السكر . ومن شأن المنتشي أن يتلف ماله فيخرج غارماً . وأن الإمارة نشوة أدعى إلى الغرم ، وسكرة أبعث على الظلم ، ومثل عمر من يخرج منها وهو سالم ، لا ظالم ولا غارم ، (٢) الشرب بالفتح جماعة الشاربين (٣) العائم ذو العيمة « كخيمة » وهي شهوة اللبن مع فقده

لم يحسن من قائله حين تسبب به إلى قبيح كالذى حكى الجاحظ قال: رجع طاوس يوما عن مجلس محمد بن يوسف وهو يومئذ والى اليمن فقال: ماظننت أنّ قولَ سبحان الله يكون معصية لله حتى كان اليوم سمعت رجلا أبلغ ابن يوسف عن رجل كلاما فقال رجل من أهل المجلس سبحان الله كالمستعظم لذلك الكلام ليغضب ابن يوسف، فبهذا ونحوه واعتبر واجعله حكما بينك وبين الشعر.

(وبعد) فكيف وضع من الشعر عندك وكَسْبَهُ لملقت منك انك وجدت فيه الباطل والكذب وبعض مالا يحسن ولم يرفعه فى نفسك ولم يوجب له المحبة من قلبك أن كان فيه الحق والصدق والحكمة وفصل الخطاب وأن كان مَجْنَى ثمر العقول والألباب، ومجتمع فرق الآداب، والذى قيّد على الناس المعانى الشريفة، وأفادهم الفوائد الجليلة، وترسل بين الماضى والغابر، ينقل مكارم الأخلاق الى الولد عن الوالد، ويؤدى ودائع الشرف عن الغائب الى الشاهد، حتى ترى به آثار الماضين، مخلدة فى الباقين، وعقول الاولين، مردودة فى الآخرين، وترى لكل من رام الأدب، وابتغى الشرف، وطلب محاسن القول والفعل، منارا مرفوعا، وعلما منصوبا، وهاديا مرشداً، ومعلما مسدداً، وتجد فيه للنائى عن طلب المآثر، والزاهد فى اكتساب المحامد، داعيا ومحرضا، وباعثا، ومحضضا، ومذكراً ومعروفا وواعظاً ومثقفا، فلو كنت ممن ينصف كان فى بعض ذلك مايغير هذا الرأى منك، وما يحدوك على رواية الشعر وطلبه، وعندك أن تعيبه أو تعيب به، ولكنك أبيت الاّ ظنا سبق اليك، والا بادى رأى عنّ لك، فأقفلت عليك قلبك،

وسددت عما سواه سمعك ، فمىّ الناصحُ بك ، (١) وعمر على الصديق الخليط تنبيهُك ، نعم وكيف رَويت «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا فيَريه (٢) خيرله من أن يمتلىء شعراً » ولَهِجْتَ به وتركت قوله صلى الله عليه وسلم : « ان من الشعر لحكمة وان من البيان لسحرا » (٣) وكيف نسيت أمره صلى الله عليه وسلم بقول الشعر ووعده عليه الجنة . وقوله لحسان « قل وروح القدس معك » وسماعه له ، واستنشاده اياه ، وعلمه صلى الله عليه وسلم به ، واستحسانه له ، وارتياحه عند سماعه ؟

(أمّا) أمره به فمن المعلوم ضرورة وكذلك سماعه إياه فقد كان حسان وعبد الله ابن رواحة وكعب بن زهير يمدحونه ويسمع منهم ويصغى اليهم ويأمرهم بالرد على المشركين (٤) فيقولون فى ذلك ويعرضون عليه . وكان عليه السلام يذكر لهم بعض ذلك كالذى روى من انه صلى الله عليه وسلم قال لكعب

---

(١) عى عجز أصله عيي فأدغم (٢) حديث رواه أحمد والشيخان وأصحاب السنن وغيرهم عن أبى هريرة وعن غيره والرواية المشهورة فيه « حتى يره » أى يفسده وفى رواية بحذف حتى يريه وفى أخرى حذف حتى وقرأها بعضهم حينئذ يريه بالفتح وبعضهم بالضم ولم أر من رواه بالفاء « فيريه » كما فى نسخة المصنف . وفى رواية ابن عدى عن جابر « لأن يمتلىء جوف الرجل قيحاً أو دماً خير له من أن يمتلىء شعراً مما هجيت به » (٣) الحديث مشهور رواه أصحاب الصحاح وغيرهم ورواية المصنف ملفقة من روايتين فقد وردت كل جملة من طريق . وأما الجملتان معاً فقد جاءتا فى حديث ابن عباس عند أحمد وابن ماجه هكذا (إن من البيان سحراً وإن من الشعر حكماً) وعند ابن عساكر من حديث على باللام وله تتمة وهى « وإن من العلم لجهلا وإن من القول عيالا) (٤) روى الخطيب وابن عساكر عن حسان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : اهج المشركين وجبرائيل معك إذا حارب أصحابى بالسلاح فحارب أنت باللسان . وفى حديث جابر عند ابن جرير أنه قال يوم الأحزاب (من يحمى أعراض المؤمنين) قال

« مانسى ربك وما كان ربك نسيا شعر آ قلته »(١) . قال وما هو يارسول الله ؟ قال : « أنشده ياأبا بكر » فأنشد أبو بكر رضوان الله عليه :

زعمت سَخِينَةُ أن ستغلب ربها ... وليُغْلَبَنَّ مُغالِبُ الغَلّابِ (٢)

(وأمّا) استنشاده إياه فكثير . من ذلك الخبر المعروف فى استنشاده حين استسقى فسُقِيَ قول أبو طالب :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمالَ اليتامى عصمةً للارامل

يُطيف به الهلاك من آل هاشم ... فهم عنده فى نعمة وفواضل

الأبيات . وعن الشعبي رضى الله عنه عن مسروق عن عبد الله قال

كعب أنا يارسول الله فقال (إنك محسن الشعر) فقال حسان بن ثابت أنا يارسول الله قال (نعم اهجم أنت فسيعينك روح القدس) وكتب الأستاذ الامام فى هامش النسخة الأصلية بازاء اسم كعب : (لعله كعب بن مالك لأن ابن زهير وإن مدح لكنه لم يؤمر بالشعر المناضلة عن الاسلام فقد وفد على النبى صلى الله عليه وسلم سنة تسع) ويؤيد قول الأستاذ مارواه ابن جرير عن ابن سيرين وملخصه أن المهاجرين رغبوا إلى النبى عليه الصلاة والسلام أن يأمر عليا بهجاء الرهط الذين هجوه (وهم عمرو ابن العاص وعبد الله بن الزبعرى وأبو سفيان بن الحارث) فقال ليس على هنالك وعرض بالأنصار فانتدب لذلك حسان وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة . وفيه أنه استنشد كعباً وهو راكب ناقته فأنشد الأبيات التى أولها :

قضينا من تهامة كل ريث ... وخيبر ثم أجممنا السيوفا

لخيرها ولو نطقت لقالت ... قواطعهن دوساً أو ثقيفا

قال : فأنشد الكلمة كلها فقال النبى صلى الله عليه وسلم (والذى نفسى بيده لهى أشد عليهم من رشق النبل) قال ابن سيرين : فنبئت أن دوساً إنما أسلمت بكلمة كعب هذه . (١) قال الأستاذ الامام (هذا هو كعب بن مالك) (٢) كتب فى هامش الأصل : سخينة لقب تنبز به قريش لأنها كانت تأكل السخينة وهى طعام من دقيق الشعير واللحم وتسخن وذلك فى أيام المجاعات . والحديث رواه ابن منده وابن عساكر عن جابر

لما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القتلى يوم بدر مصرّعين فقال صلى الله عليه وسلم لأبى بكر رضى الله عنه «لو أن أبا طالب حيّ لعلم أن أسيافنا قد أخذت بالانامل» قال وذلك لقول أبى طالب (١)

كذبتم وبيت الله أن جد ما أرى لتلتبسن أسيافنا بالانامل
وينهض قوم فى الدروع اليهم نهوض الرّوايا فى طريق حلاحل

(١) البيت الذى فيه لفظ الأنامل فى قصيدة أبى طالب هو قوله

وقد حالفوا قوماً علينا أظنة يعضون غيظاً خلفنا بالأنامل

والبيت الذى فيه كذبتم هو قوله:

كذبتم وبيت الله نترك مكة ونظعن إلا أمركم فى بلابل

وقوله: كذبتم وبيت الله نبزى محمدا ولما نطاعن دونه ونناضل

والبيت الذى فيه لتلتبسن الخ هو قوله:

وأنا لعمر الله إن جد ما أرى لتلتبسن أسيافنا بالأنامل

والذى فيه ينهض الخ هو قوله

وينهض قوم فى الحديد إليكم نهوض الروايا تحت ذات الصلاصل

وبهذا تعلم مافى بيتى الشيخ . اه من هامش الأستاذ الامام

(تفسيره) قوله أظنة جمع ظنين وهو المتهم . والظنة بالكسر التهمة وجمعها ظنن. وجمع فعيل على أفعلة غير قياسى ولكنه ورد ومنه قوله تعالى «أشحة عليكم». وقول نترك مكة أى لانتركها . ومثله قوله نبزى محمدا أى لانبزاه ولفظ (محمدا) منصوب بنزع الخافض . يقال أبزى فلان بفلان إذا غلبه وقهره أى لانغلب بمحمد ولا نقهر عليه والحال أننا لم نطاعن دونه بالرماح ونناضل عنه بالسهام فالجملة المنفية بلما حال من نائب الفاعل . وقوله (لتلتبسن أسيافنا بالأماثل) أى لتختلطن بالاشراف بما تفتك بهم فى الحرب ، والروايا جمع رواية وهو مايستقى عليه من بعير وغيره ، والصلاصل القرب فيها بقايا الماء واحدها صلصلة بضم الصادين وهى بقية الماء فى الاداوة والقربة ـ يريد أن قومه ينهضون متقلين بالحديد تسمع له قعقعة كصلصلة الماء فى المزادات

ومن المحفوظ فى ذلك حديث ابن مسلمة الانصارى [١] جمعه وابنَ أبى حدرد الاسلمى الطريق قال فتذاكرنا الشكر والمعروف قال فقال محمد كنا يوما عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال لحسان بن ثابت : « انشدنى قصيدة من شعر الجاهلية فان الله تعالى قد وضع عنا آثامها فى شعرها وروايته » : فأنشده قصيدة للأعشى هجا بها عَلقمة عُلاَثة

علقمَ ما أنت إلى عامرٍ ‏ ‏ ‏ ‏ الناقض الاوتار والواتر

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ياحسان لاتعد تنشدنى هذه القصيدة بعد مجلسك هذا » فقال يارسول الله تنهانى عن رجل مشرك مقيم عند قيصر فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ياحسان أشكر الناس للناس اشكرهم لله تعالى ، وان قيصر سأل أبا سفيان بن حرب عنى فتناول منى . وفى خبر آخر فشعّث منى وأنه سأل هذا عنى فأحسن القول » فشكره رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك . وروى من وجه آخر ان حسان قال يارسول الله من نالتك يده وجب علينا شكره ومن المعروف فى ذلك خبر عائشة رضوان الله عليها انها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يقول « أبياتك » فأقول

ارفع ضعيفك لايحُرْ بك ضعفُه ‏ ‏ ‏ ‏ يوما فتدركه العواقب قد نمى
يَجزيك أو يثنى عليك وأنّ من ‏ ‏ ‏ ‏ أثنى عليك بمافعلت فقد جزى

(١) الحديث رواه ابن أبى الدنيا فى قضاء الحوائج وابن عساكر عن محمد بن مسلمة بلفظ (ياحسان أنشدنى من شعر الجاهلية فان الله قد وضع عنك آثامها فى شعرها وروايتها) وفيه أنه قال له بعد إنشاد القصيدة (ياحسان لاتعد تنشدنى هذه القصيدة فانى ذكرت عند قيصر وعنده أبو سفيان وعلقمة بن علاثة فأما أبو سفيان فتناول منى وأما علقمة فحسن القول وأنه لايشكر الله من لايشكر الناس)